((نظرية النظم )) عند عبد القاهر الجرجاني

ماهي فكرة النظم ؟

تدور هذه الفكرة حول وجود نظام من العلاقات المتشابكة والعضوية التي تربط بين الالفاظ ، والمفردات التي تتكون منها المفردات ، فالنص مجموعة من العلاقات حتى اننا لا نستطيع أن نستغني عن اي مفردة او لفظة داخل النص ، وهذا يعني أن النص عبارة عن نسيج متماسك المكونات والاطراف .

بدأت بذور هذه الفكرة في اواخر القرن الثاني الهجري واوائل القرن الثالث الهجري تحديدا عند علماء المعتزلة وعند الجاحظ على وجه الاخص الذي النتهى في كتابه (البيان والتبيين) الى ان الشعر هو ضرب من النسج وجنس من التصوير .

تتواصل عملية تطور هذه الفكرة حتى نصل الى القرن الرابع الهجري، وفي هذا القرن تقوم دراسات، (إعجاز القران) التي تساهم بدورها بتطوير فكرة النظم ،إذ انتهى علماء الاعجاز على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم الفكرية الى ان القران معجز في نظمه ، وتستمر تطور الفكرة حتى نصل الى القرن الخامس الهجري – وهنا- يقوم عبد القاهر الجرجانيبالاستفادة ممن سبقوه في بحث فكرة النظم، فيطورها الى نظرية ذات اصول وقواعد ويضع فيها كتابا (دلائل الاعجاز) .

**كيف يعرف عبد القاهر الجرجاني النظم ؟**

ورد تعريف النظم عند الجرجاني في أكثر من موضع في كتابه (دلائل الاعجاز) إذ يعرفه بقوله : (( أعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الموضع الذي يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه واصوله ومناهجه ...)

ويصنف عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الاعجاز بعض هذه القوانين والقواعد نذكر منها موضوع ( التقديم والتأخير واستعمال الاسم والفعل خبرا وذلك في تكوين المعنى ، الحذف والاظهار ، الفصل والوصل ، استخدام أن لحذف المشبه بالفعل ، التذكير والتعريف) .

وعند حديثه عن قوانين النحو وقواعده فإنه يقيم فارقا بين هذه القوانين بوصفها **قوانين مجردة ثابتة** ، وبوصفها **حركات إعرابية** نقول نفرق بين هذه الحالة وبين المعاني التي تتولد عن استخدام هذه القوانين فالذي يؤكد عليه عبد القاهر في نظريته هي (المعاني والدلالات ) التي ستنتج بعد ذلك من جراء استخدام القوانين النحوية ، فالعبرة ليست بالقوانين ذاتها ، وإنما فيما تولده من معان ودلالات .

وبعدها يفرق عبد القاهر بين مصطلحين اساسين هما **(اللغة)** و**(الكلام )** فاللغة في نظره لا تعدو أن تكون مجموعة من القوانين سواء كانت نحوية أم صرفية أم معجمية وتتسمه هذه القوانين بان من يتكلم اللغة يشترك مع الاخرين في معرفتها، فنحن على سبيل المثال نشترك جميعا في معرفتنا بقوانين اللغة العربية ولا فرق بين زيد وعمر في هذه المعرفة ، فالقوانين – هنا- هي الاصول الواحدة المتفق عليها . أما **(الكلام)** فيريد به عبد القاهر الجرجاني في الاستخدام الفردي الذاتي لهذه القوانين، وهذا يعني بالتالي قيام التفاوت والاختلاف بين الناس في استخدام قوانين اللغة على وفق الموهبة الذاتية ، وطبيعة الثقافة الى جانب القضية الاساسية المهمة وهي (الاغراض والمعاني ) التي يريد المبدع ايصالها الى الاخرين ، أي بعبارة مختصرة ( مطابقة الكلام لمقتضى الحال)

وبذلك تظهر **القيمة البلاغية** من (الكيفية في استخدام قوانين اللغة لا سيما من استخدام القوانين النحوية) وبذا يتضح اختلاف جوهري بين استعمال الاعتيادي لقوانين اللغة والذي لا تفاوت ولا تفاضل ولا بلاغة فيه وبين الاستعمال الفني الموسوم بالذاتية والفردية لهذه القرانين . أي : كيفية انتاج البليغ عبر الاستخدام الشخصي لقوانين اللغة .

وبعد ذلك يُظهر لنا عبد القاهر في نظريته وبحثه في ( قضية القيمة البلاغية وكيف تتولد ) ، فيقول: (( أن الكلام ضرب أن تصل منه الى الغرض بدلالة اللفظة وحدها ... وضرب اخر انت لا تصل منه الى الغرض بدلالة اللفظة وحدها ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ، ثم تجد لذلك المعنى دلالة تصل بها الى الغرض... )) .

نحن إذن امام **نوعين من المعاني :**

1. **المعنى الاول** الذي نصل اليه بدلالة اللفظة ذاتها ، وهذا ما نسميه المعنى **( العادي السطحي المباشر)** وهو معنى اخباري مجرد يراد به تقديم الدلالة أو الفكرة تقديما سطحيا خاليا من الفنية .
2. **المعنى الثاني** فهو ما اطلق عليه عبد القاهر مصطلح ( معنى المعنى ) ، ويراد به (( المعنى الذي يعتمد التأويل ويكون عميقا ونصل اليه بوساطة طرق المجاز المختلفة ( التشبيه ، الاستعارة ، الكناية ) .

ويمضي عبد القاهر الجرجاني في نظرية النظم فيقرر لنا ، أن القيمة الفنية في التشبيه ، والاستعارة ، والكناية (ضروب المجاز) ليس في كونها تشبيهات أو استعارات أو كنايات. أي : قيمتها ليست في نفسها.

إذن أين تكمن القيمة البلاغية لضروب المجاز على وفق نظرية عبد القاهر الجرجاني ؟

تكن القيمة البلاغية كما يرى عبد القاهر واعتمادا على نظرية النظم في كيفية (تنظيم أو نظم) الاستعارة أو التشبيه أو الكناية ) وغيرها من اشكال المجاز .

ولكي يوضح عبد القاهر هذه القضية اعتمد على نص قراني مشهور في قوله تعالة : **(( اشتعل َ الرأسُ شيباً))** يذهب عبد القاهر الى أن أصل هذع العبارة هو : ( اشتعل شيب الرأس) أو ( اشتعل الشيب في الرأس) هاتان الجملتان توافقان قوانين النحو العربي دون تغيير فما الذي حدث لصناعة الاستعارة في الجملة ؟

عمد النص القراني الى زحزحة المضاف اليه والمجرور (الرأس)من مكانها الطبيعي وجعلها فاعلا للفعل اشتعل . أي: جعل ما ليس بفاعلا فاعلا . واخذ الفاعل الحقيقي للفعل اشتعل وهو كلمة (الشيب) وجعلها في نهاية الجملة وصيرها نكرة وتمييزا ، وهكذا يكون عبد القاهر قد فسر لنا سر بلاغة الاستعارة في النص القراني بالإعتماد على كيفية نظمها .

تتميز النصوص الأدبية بما نسميها بظاهرة **( العدول )** ويراد بها الخروج أو التغيير في القوانين المتعارف عليها في اللغة بما يسمح بصناعة المعنى الأدبي أي: ( معنى المعنى) .

نستنتج من كل ما سبق قضيتين يعود الفضل فيهما الى جهود الجرجاني هما :

**القضية الاولى : ( القضاء على فكرة اللفظ والمعنى** ) التي شاعت وانتشرت في الاوساط النقدية والبلاغية قبل مجيء عبد القاهر الجرجاني إذ كان البلاغيون يعدون سبب بلاغة النص أما في (بلاغة الفاظه أو بلاغة معانيه )

و كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة خير من يمثل ذلك ، ومع مجيء عبد القاهر الجرجاني بنظرية النظم يكون قد اجهز تماما على فكرة ثنائية (اللفظ والمعنى)، فلا وجود لهما اصلا بل هناك نسيج متكامل من الالفاظ والمعاني ، وهناك علاقات اسنادية تربط بين الالفاظ والمفردات داخل السياق .

**القضية الثانية : (قضية السرقات الأدبية)** ويراد بها ( هو الذي ابتكر المعنى لأول مرة ومن ثم جاء الشعراء بعده فسرقوه بعده )أما عبد القاهر الجرجاني واعتمادا على نظرية النظم يكزن قد الغى نظرية السرقة الادبية ، فلا وجود لمعنى مسروق طالما أن لكل شاعر طريقته الخاصة الشخصية والذاتية في أستخدام قوانين اللغة ، فالمتنبي مثلا يستخدم قوانين اللغة على وفق طريقته الخاصة ، وكذا الأمر بالنسبة الى غيره من الشعراء ، وهذا يعني بالتالي لا وجود لمعنى واحد ثابت . فالمتنبي يتحدث عن الكرم على وفق طريقته الخاصة ، والبحتري يتحدث عن الكرم ايضا لكن على طريقته الخاصة ، وأبو العلاء المعري يتحدث كذلك عن الكرم على وفق طريقته الخاصة . إذن نحن أمام معان متعددة من الكرم وهذا ينقض فكرة (السرقة)